﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق: 1 - 6]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

نعيمُ الأولياءِ مُذهِلٌ، وعذابُ الأعداءِ هائلٌ

لمّا خُتمتْ سورة المطفِّفين بأنَّ الأولياء في نعيم، وأنَّ الأعداء في جحيم، ثوابًا وعقابًا، ابتدأتْ سورة الانشقاق بالإقسام على ذلك[1].

لمّا ذكر الله سبحانه في أواخر السّورة السّابقة أحوالَ الفجّار والأبرار في يوم القيامة، ذَكَر في أوائل هذه السّورة أهوال ذلك اليوم، جَمعًا للنّظير بالنّظير[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱنشَقَّتْ﴾: (شقق) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على انصداعٍ في الشّيء، ثُمَّ يُحمل عليه ويشتقّ منه على معنى الاستعارة. تقول شققتُ الشّيءَ أشُقُّه شَقًّا، إذا صَدَعْتَهُ. وبيده شقوقٌ، وبالدّابَّة شُقاقٌ، والأصل واحد. كما يُقال لنصف الشّيء: الشِقُّ، وهو أيضا الخُرم الواقع في الشّيء[3]. ولفظ ﴿ٱنشَقَّتْ﴾ مطاوعُ شقَّها، أي: حين يشقُّ السّماءَ فتنشقُّ، ومعنى انشقاقها: انفطارها بالغمام الأبيض كما في قوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥﴾ [الفرقان: 25][4].

2) ﴿وَأَذِنَتْ﴾: (أذن) أصلان مُتقاربان في المعنى، مُتباعِدان في اللَّفظ، أحدهما أُذُن كلِّ ذي أُذُن، والآخَرُ العِلْمُ؛ وعنهما يتفرّع

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 335.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 253.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (شقّ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 218، والشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 491.

البابُ كلُّه.[1] فالأذَن الاستماع، لأنّه بالأُذُن يكون. ويُستعمل أيضًا في العلم الّذي يُتوصّل إليه بالسّماع، نحو قوله: ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [البقرة: 279][2]. ويستعار لِمَن كثر استماعه قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾ [التوبة: 61] أي: استماعه لما يعود بخير لكم، فمعنى قوله ﷻ: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ أي: استمعت[3].

3) ﴿وَحُقَّتۡ﴾: (حقق) وهو أصلٌ واحدٌ يَدُلُّ على إحكام الشَّيء وصحّته[4]، حقَّ الشّيءُ، يحِقُّ، حَقًّا: إذا ثَبَت ولَزِم[5]. ويأتي الحقّ بمعنى الصّحيح، وضدّه: الباطل[6]. والحقيقةُ: الشَّيءُ الصَّحيح يقينًا[7]. وتحقَّقَ الأمر: إذا صحّ. ومعنى حَقَّت السّماء: أطاعت، وحُقَّ لها أن تُطيع ربَّها، لأنَّه خَلَقها، فكانت حقيقةً بالاستماع والانقياد، وحَريَّةً بهما[8].

4) ﴿مُدَّتۡ﴾: (مدد) وهو جرُّ شيءٍ في طول، واتّصالُ شَيءٍ بشيء في استطالة، فما كان بطريق الزّيادة يقال فيه: مدّه مدًّا، أي: زاد فيه وواصله، وكلّ ما كان منه بطريق التّقوية والإعانة يقال فيه: أمدّه[9]. فمعنى ﴿مُدَّتۡ﴾ الزّيادة في وجه الأرض سواء بتمديدها أو بإمدادها؛ فإنَّ خَلْقَ الأوَّلين والآخرين واقفون يوم القيامة على ظهرها، فلا بدّ مِن الزّيادة في طولها وعرضها[10].

5) ﴿وَتَخَلَّتۡ﴾: (خلو) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تعرّي الشّيء مِن الشّيء، يقال هو خِلْوٌ مِن كذا، إذا عَرِيَ منه. وخلتِ الدّارُ وغيرها تخلو: لم يكن فيها أحَدٌ ولا شيءَ فيها. والمكان الخلاء: الّذي لا شيء به[11]. فالمقصود مِن لفظ ﴿وَتَخَلَّتۡ﴾ في الآية أنّ الأرض أخرَجَت ما في باطنها فلَم يبق منه شيءٌ كما قال تعالى: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢﴾ [الزلزلة: 2][12].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذن).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (أذن).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (الألف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (حق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).
(7) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (حق).
(8) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 256.
(9) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (مدّ).
(10) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 97.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلو).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 221.

6) ﴿كَادِحٌ﴾: اسم فاعل مِن (كدح) وهو أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على تأثيرٍ في شيء. يقال كدَحه إذا خدَشه. ومن هذا القياس كَدَح يكدَحُ كَدْحًا إذا كسب، فهو كادح، أي: كاسب. والكدْح أيضًا: إتعاب النَّفس في العمل والكدِّ حتَّى يؤثِّر فيها.[1] فمعنى ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: جاهدٌ إلى لقاء ربِّك، وهو الموت[2]، أو جاهدٌ ومُجِدٌّ جِدًّا في عملك مِن خيرٍ وشَرٍّ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أهـوالٌ عِـظـام، يتلوها أحـداثٌ جِسام، يعقبها مجازاةٌ للأنام

معنى الآيات: إذا السَّماء تصدَّعت، وتفطَّرت بالغمام يوم القيامة، وأطاعت أمْرَ ربِّها فيما أمَرَها به مِن الانشقاق، وحُقَّ لها أن تنقاد لأمره. وإذا الأرض بُسطت ووُسِّعت، ودُكَّت جبالُها في ذلك اليوم، وقذَفَت ما في بطنها مِن الأموات، وتخلَّتْ عنهم، وانقادت لربِّها فيما أمَرَها به، وحُقَّ لها أن تنقاد لأمره. يا أيُّها الإنسان إنَّك ساعٍ إلى الله، وعاملٌ أعمالًا مِن خير أو شرٍّ، ثم تلاقي الله يوم القيامة، فيجازيك بعملك بفضله أو عدله[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ المطلَعِ بأسلوب الشّرط وحذف الجواب:

قـيـامُ الـسّـاعـة بتحقُّقِ أشراطها

افتتحت السّورة بقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، فبدأ النّظم في وصف أشراط السّاعة وحلول يوم البعث بذِكر انشقاق السّماء بأسلوب الشّرط المتحقّق ليفيدَ تَرتُّب الجزاء على الشّرط، وقد حُذف في النّظم جواب ﴿إِذَا﴾ لتذهب النّفس في تقديره كُلَّ مذهب مِن التَّهويل، بحيث لا يبلُغه طولُ التَّعبير فينبغي طيُّه. أو

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (كدح).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 357.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 221، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 288.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 230، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 589.

اكتفاءً بما عُلم في مثلها من سورتَي التَّكوير والانفطار، ويجوز أنْ يكون جوابها ما دلّ عليه ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾، أي: (إذا السّماء انشقّت: لاقى الإنسانُ كدحَه)[1].

بلاغة استعمال الأداة ﴿إِذَا﴾:

القطْعُ بحصولِ جوابِ الشّرطِ في المستقبل

أوثر التّعبير بالأداة ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، وهي ظرفُ زمانٍ للمستقبل في الغالب، وتتضمَّن معنى الشَّرط غالبًا، لأنَّ معانيَ الظّروف قريبةٌ مِن معاني الشَّرط، لما فيها من التَّعليق[2]. والأصلُ في استعمال (إذا) أن تكون للمقطوع بحصوله، وللكثير الوقوع[3]، فكُلُّ ما ذَكَره الله سبحانه مِن أشراط السّاعة وأهوال يوم القيامة واقعٌ لا محالة.

نكتةُ تقديم الظَّرف ﴿إِذَا﴾ على عامله:

التّهويل والتّشويق إلى الخبر

تقدّم الظّرف ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ على عامله وهو ﴿كَادِحٌ﴾ لنكتة التَّهويل والتَّشويق إلى الخبر، وتقديرُ أوَّل الكلام في الاعتبار: (يا أيّها الإنسان إنّك كادح إذا السّماء انشقّت.. إلخ). ولكن لمّا تعلّق ﴿إِذَا﴾ بجزءٍ مِن جملة ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ وكانت ﴿إِذَا﴾ ظرفًا متضمِّنًا معنى الشّرط صار قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ جوابًا لِشَرط ﴿إِذَا﴾ ولذلك يقولون: ﴿إِذَا﴾ ظرفٌ خافض لشَرْطِه منصوبٌ بجوابه، أي: خافضٌ لِجُملة شرطِه بإضافته إليها منصوبٌ بجوابه لِتَعلُّقِه به، فكلاهما عاملٌ ومعمولٌ باختلاف الاعتبار[4].

نكتةُ تقديم المُسنَد إليه على المُسنَد الفِعليّ:

تقويةُ الشَّرطِ والدّلالةُ على تحقُّقِ وقوعه

تقدَّمَ المسنَدُ إليه ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 725.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 105.
(3) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 69.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 218.

على المُسنَدِ الفعليِّ ﴿ٱنشَقَّتۡ﴾ دون أن يُقال: (إذا انشقّت السّماء) لإفادة تَقَوّي الحُكم وهو التَّعليقُ الشَّرطيُّ، أي إنّ هذا الشّرط محقَّقُ الوقوع، زيادةً على ما يقتضيه ﴿إِذَا﴾ في الشّرطية مِن قَصدِ الجَزمِ بحصول الشَّرط بخلاف (إن)[1].

دلالةُ تعريف لفظ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾:

شمولُ السَّماء لِكُلِّ ما يُحيط بالأرض مِن أجرامٍ وأجسامٍ

وَرَدَت كلمةُ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ مُعَرَّفَةً بأداة التَّعريف (أل) الدّالَّة على تعريف الجنس، سواءً أريد بالسَّماء الجنسُ الصّادقُ بجميع السّماوات على طريقة العموم الحقيقيِّ، أي: ما يحيط بالأرض مِن أجرامٍ وعوالمَ عُلويّة[2]، أو الصّادق بسمواتٍ مشهورةٍ على طريقة العموم العُرفيِّ وهي السَّمواتُ السَّبع[3].

نُكتةُ إفراد ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ دون جَمعِها:

الإفرادُ لِقَصدِ الجِنس أو الجهة، والجمعُ لِقَصدِ التَّعظيمِ والسَّعة

جاء لفظ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ مُفرَدًا، قصدًا الى الجنس المفيد للاستغراق. والسّماء ذُكرتْ في القرآن الكريم تارةً بصيغة الجمع وتارةً بصيغة الإفراد لنُكَتٍ تليق بكُلِّ محلٍّ بخصوصه، والحاصل أنّه حيث أريد العدد أُتي بصيغة الجمع الدّالَّة على سَعَة العَظَمَة والكَثْرة، نحو: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الحديد: 1] أي جميعُ سُكّانها على كثرَتِهم، ونحو: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الجمعة: 1] أي كلُّ واحدٍ على اختلاف عَدَدها؛ وحيثُ أُريد الجهةُ أُتي بصيغة الإفراد نحو: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ [الذاريات: 22]، ونحو: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك: 16]، أي مِن فوقِكم[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 218.
(2) قباوة، المفصّل في شرح الجلالين: ص 2098.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 97.
(4) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 355.

دلالةُ استعمال مُفردة الانشقاق مادَّةً وصيغةً:

أحـوال السّماء يوم القيامة بين انفطارٍ وانشقاقٍ

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ بلَفظِ ﴿ٱنشَقَّتْ﴾، وهو مُطاوع (شقّ)، أي: حين يشُقُّ السّماءَ فتنشقّ، أي: يريد الله شقَّها فانشقّت كما دَلَّ عليه قوله بعده: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾.

وجَعَلَ بعضُ العلماء هذا الانشقاقَ هو الانفطارُ الّذي تقدَّمَ في قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ [الانفطار: 1]، ثمّ اختلفوا في كيفيَّته، فقال بعضهم ﴿ٱنشَقَّتْ﴾، أي: بالغمام كما روي عن ابن عبّاس، وذهب إليه الفرّاء والزجّاج، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ﴾ [الفرقان: 25]، فالقرآنُ يُفسِّر بعضُه بعضًا، وقيل: تنشَقُّ لهول يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦﴾ [الحاقة: 16] وهو لا ينافي أن يكون الانشقاقُ بالغمام. وقيل تنشقُّ مِن المجَرَّةِ وهي باب السّماء[1]. أو "هو انشقاقٌ يلوحُ للنّاس في جوّ السّماء من جَرّاء اختلال تركيبِ الكُرةِ الهوائيَّة، أو مِن ظهور أجرام كَوكَبيَّةٍ تخرج عن دوائرها المُعتادة في الجوِّ الأعلى فتنشقُّ القُبَّةُ الهوائيَّة فهو انشقاقٌ يقع عند اختلال نظام هذا العالم"[2].

انشقاقُ السَّماء واقِعٌ متحقِّقٌ، لا متوقَّعٌ مترقَّبٌ

وعُبّر بالفِعل الماضي ﴿ٱنشَقَّتْ﴾ - ومعلومٌ أنَّ الفِعل الماضي يخرج إلى الاستقبال في باب الشَّرط - للتّنبيه على تحقُّقِ وقوعه، ولأنَّ أصلَ ﴿إِذَا﴾ القطعُ بوقوع الشَّرط.

والقصدُ مِن مجيء الشَّرطِ ماضيًا - وإن كان معناه الاستقبال - هو إنزالُ غيرِ المتيقَّن مَنزلةَ المُتيقَّن، وغيرِ الواقع منزلةَ الواقع، مثل قولهم (إن قمتَ قمتُ) فيجيء بلفظ الماضي والمعنى معنى المضارع، وذلك أنّه أراد الاحتياط للمعنى، فجاء بمعنى المضارع المشكوك في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 286.
(2) التّحرير والتّنوير: 30/ 218.

وقوعه بلفظ الماضي المقطوع بكونه، حتّى كأنّ هذا قد وقَعَ واستقَرَّ، لا أنَّه متوقَّعٌ مترقَّب"[1].

بلاغة المجاز في إسناد فِعل الانشقاق للسّماء:

انشقاقُ السَّماء إرادةُ اللـــه وقضاؤه

أُسنِد فِعلُ الانشقاق في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ للسّماء مِن باب المُطاوَعة، وهو قَبولُ الأثر، والمعنى أنَّ الله يريد شقّها فانشقّت، كما دَلَّ عليه قوله بعده: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾، ومعلومٌ في النَّحو أنَّ الفعل يجوز إسناده لفاعله أو لمن اتّصف به.

انشقاقُ السّماء مسبَّبٌ عن أمرِ الله سبحانه

وخَرَّجَ بعضُ العلماء قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ على المجاز في لفظ ﴿ٱنشَقَّتۡ﴾، فقالوا إنّه يجوز أن يكون مجازًا مرسلًا في التأثُّر لأمر الله التَّكوينيِّ بأن تنشقّ.[2] والعلاقة المسببيّة، أي: إنّ انشقاق السّماء كان مسبّبًا عن أمر الله لها بذلك.

توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ بين ﴿ٱنشَقَّتۡ﴾، و﴿ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾:

الانفطار سابقٌ لـلانـشـقـاق، وأدَقُّ مـــنه وأخفى

قال ربُّنا سبحانه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾ [الانفطار: 1]، وقال ﷻ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾، فوُصفت السّماء بالانفطار وبالانشقاق، فذهب بعض المفسّرين إلى عدم التّفريق بين الوصفين، وجعلوهما شيئًا واحدًا[3]، ولكنَّ الرّاجِحَ وجودُ فرقٍ بينهما، لقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [مريم: 90]، والعطفُ يقتضي المُغايَرة، كما يدُلُّ عليه الاشتقاق اللُّغويُّ لِكُلٍّ لفظٍ وكذلك الاستعمال، فالانفطار من الفَطر وهو الابتداء[4]، فيُستفاد منه أنَّ الانفطار يحدُث أوَّلاً ثُمَّ يعقُبه الانشقاق.

ومِن الفروق أيضًا أنَّ الانفطار يكون بأجزاءٍ دقيقةٍ كانفطار القَدَم، ومنه حديث عائشة ﵂ عن النّبيّ ﷺ أنّه: «كانَ يَقومُ مِنَ

(1) ابن جنّي، الخصائص: 3/ 107، وفاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 78.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 219.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 218.
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 29.

اللَّيْلِ حتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَماهُ»[1]، وقوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣﴾ [الملك: 3]، أمّا الانشقاق فيكون ظاهرًا كبيرًا كانشقاق القمر، فيُشيرُ الانفطار إلى بداية التَّصدُّع، والانشقاق إلى التَّمزُّقِ والانهيار الكامل. والجمعُ بينهما أنَّ أوَّلَ الأمر انفطارُ السَّماء ثمّ انشقاقُها.

نوعُ الواو ودلالتها في جملة ﴿وَأَذِنَتۡ﴾:

الانشقاق امتثالٌ مِن السّماء لأمر ربّها وانقيادٌ لسُلطان خالقها

عُطف قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ على ما قبله بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران، والجملةُ في محلّ جَرٍّ معطوفةٌ على جملة فِعل الشَّرط الّتي قبلها للدّلالة على أنّ انشقاق السّماء كان امتثالًا لأمر ربّها وانقيادًا لسلطان خالقها.

سِرُّ إيثار الفعل ﴿وَأَذِنَتۡ﴾ دون (سمعتْ):

المبالغةُ في إظهار الانقياد والامتثال

أوثرَ في قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ التّعبيرُ بالفعل (أذنتْ)، دون (سمعتْ) لقصد المبالغة في إظهار الانقياد والامتثال لأوامر الخالق سبحانه، أي إنّ السّماء شديدةُ الاستماع والطّواعية والانقياد على أتمّ وجهٍ، كمن له أُذنٌ واعيةٌ ونفسٌ مطمئنّةٌ راضية[2].

بلاغة استعمال الفعل (أذنت) بين الحقيقة والمجاز:

السّماء طائعةٌ لأمر ربّها منصاعةٌ له

جوّز بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ أن يكون مِن قبيل الاستعارة المفردة باعتبار استعماله في ما ليس له حاسّةُ السَّمع، فـ(أذنت) مُشْتَقٌّ مِن الأذْن بمعنى توجيه الأذُن السّامعة، أو من الأُذُن بمعنى العضو المَخْصوص؛ لأنّه يجوز الاشْتقاق من الجوامد[3]. ويجوز أيضًا أن يكون استعارةً تمثيليَّةً مُركَّبةً، فيكون إذن السّماء للانشقاق تمثيلًا بأن لم يوجد في جِرم السّماء ما يمنع مِن تأثير قدرة اللّه في شقِّها وتفريق أجزائها، فكانت في قَبول ذلك

(1) أخرجه البخاريّ، الجامع الصحيح، برقم: (4837)، ومسلم، صحيح مسلم، برقم: (2820).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 96.
(3) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 161.

التّأثير والانقياد له كالعبد الطّائع؛ إذا ورد عليه الأمر مِن جهة مالكه أذعنَ ولم يمتنع لذلك[1]. وعلى هذا المعنى يصلُح أيضًا أنْ يكون استعارةً مَكنيَّةً حُذف فيها المشبَّه به واستُعير لفظ الإذن والاستماع المستعمل في غايته[2]. ورفَضَ ابن عاشور أن يكون استعارةً، تمثيليَّة كانت أو غيرَها، بل ذَهَب إلى أنّه مجازٌ مُرسلٌ في التأثُّر لأمر الله التَّكوينيِّ بأن تَنشَقَّ[3].

وذهَبَ فريقٌ آخر مِن العلماء إلى حمل الكلام على حقيقته، وهو أرجح؛ لأنّه أبلغُ وأدخلُ في تحصيل المَرام، ولأنّه حينئذٍ يكون استماعُ السّماء باختيارها، بخلاف حملها على المجاز فإنّه حينئذٍ يكون بطَبْعها، وما يكون باختياره أقوى ممّا يكون بطَبْعه. والكلامُ أو السّمع غيرُ مُمْتَنعٍ مِن الجمادات، بل هو كائنٌ لا يُنكره إلا مُنكرُ خوارقِ العادات. قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فصلت: 11][4].

نوع اللام ودلالتها في قوله: ﴿لِرَبِّهَا﴾:

حرفُ اللّام في قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ دالٌّ على التَّعدية، فالفِعلُ (أذن) مثل (استمع) يتعدّى بـ(اللّام) وبـ (إلى)، قال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ﴾ [يونس 42]. ويجوز أن تكون دالَّةً على التَّعليل، فالسّماءُ انشَقَّت وأذنت بسبب أمرِ رَبِّها لها بذلك[5].

أمرُ الله تعالى مُطاعٌ لا رادَّ له

دلالةُ التَّعبير بعُنوان الرُّبوبيَّة:

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ بعنوان الرُّبوبيَّة دون غير ذلك مِن أسماء الله وطرق تعريفه، لما يُؤذِن به وصفُ الرَّبِّ سبحانه

الدّلالةُ على المُلكِ والتّدبير والسّيادةِ المُطلَقة

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 356.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 424.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 219.
(4) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على تفسير البيضاوي: 3/ 428.
(5) مكّي القيسيّ، الكشف عن وجوه القراءات السّبع وعللها: 2/ 222.

مِن المُلك، والتَّدبير، والتَّفرُّد، والإصلاح للشّيء المربوب، والرِّعاية لمصالح ملكه. فالسّماء مربوبةٌ ومخلوقةٌ له تعالى، كما يدُلُّ وصفُ الرَّبِّ على السّيادة المطلقة وفرض الطّاعة، فحُقَّ للسّماء طاعةُ رَبِّها والإذعانُ لأمره[1].

دلالةُ إضافة الرُّبوبيَّة للضَّمير:

تعظيمُ قدر السّماء بإضافتها إلى خالقها سبحانه

أضيف وصفُ الرَّبِّ في قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ إلى الضّمير العائد على السّماء باعتبار أنّ خالِقَها ومالِكَها هو الله سبحانه، فهذه الإضافةُ على تقدير اللّام المفيدة للاختصاص، فالسّماءُ وكلُّ المخلوقات مُنقادَةٌ لخالقها مقرة له بالطّاعة والإذعان، كما أنَّ الإضافةَ هنا إضافةُ تشريفٍ للسَّماء، وتعظيمٍ لقدرها وشأنِها؛ فهي خَلْقٌ عظيمٌ من خلْق ربِّها سُبحانه.

نوع الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَحُقَّتْ﴾:

السّماء محقوقةٌ بالانقياد لخالقها

الواو في قوله تعالى: ﴿وَحُقَّتْ﴾ للاعتراض، فهذه الجملة مُعترِضةٌ بين المعطوف والمعطوف عليه، والمعنى: (وهي محقوقةٌ بأنْ تَأذن لِرَبِّها، لأنّها لا تخرج عن سلطان قدرته وإن عظم سَمكُها واشتدّ خَلْقُها وطال زمانُ رَتقِها، فما ذلك كُلُّه إلّا مِن تقدير الله لها، فهو الّذي يُمسكها وهو الّذي إذا شاء أزالها)[2].

بلاغة استعمال مفردة ﴿وَحُقَّتْ﴾:

الانقياد إلى القُدرة الربّانيَّة القاهرة

أوثر في الآية التَّعبيرُ بمفردة ﴿وَحُقَّتْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾، من قولهم: (هو حقوقٌ بكذا، وحقيقٌ به)، أي: (السَّماءُ حقيقةٌ بأن تنقاد ولا تمتنع)، وقال الضّحّاك: وحُقّت أي: أطاعت، وحُقَّ لها أن تطيع ربّها؛ لأنّه خَلَقها. والمعنى أنّها جُعلت

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 219، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 186، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: 15/ 128.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 219.

حقيقةً حَريَّةً بالاستماع والانقياد؛ إذ هي مربوبةٌ ومصنوعةٌ له تعالى، مجبولةٌ على أنَّ ذلك حقٌّ عليها ثابتٌ لها، وذلك شأنُها بالنِّسبة إلى القدرة القاهرة الربّانيَّة الّتي يتأتّى بها كُلُّ مقدورٍ، ولا يتخلَّفُ عنها أمرٌ مِن الأمور[1].

دلالة التّعبير بصيغة ﴿وَحُقَّتْ﴾:

حـقّ السّمع والطّاعة على المخلوقات

بُنِيَ الفعلُ في قوله تعالى: ﴿وَحُقَّتْ﴾ للمفعول، والفاعل في هذا التّركيب هو الله تعالى، أي حَقَّ الله عليها ذلك أي سمعَه وطاعتَه، فالفاعل إذن محذوفٌ وهو الله تعالى، والمفعولُ به هو سَمعُها وطاعتُها، وهو غيرُ مذكورٍ، بل الإسنادُ في الآية إنّما هو للسّماء نفْسِها، فيحتاج إلى تقديرٍ، والتّقدير: (وحُقَّتْ هي) أي: (حَقَّ سمعُها وطاعتُها)، أي (حَقَّهُ الله تعالى عليها وأوجبه وألزمها به)، هذا هو الظّاهر. وأجاز بعض المفسّرين أن يكون نائب الفاعل هو ضمير السّماء المستكنّ في الفعل مِن غير تقدير، فمعنى وحُقَّت: أي جعلت حقيقةً بالاستماع والانقياد، والفاعل هو الله تعالى، أي وحَقَّ الله تعالى عليها الاستماع[2].

نُكتةُ تكرار (إذا):

استقلالُ كُلٍّ مِن السَّماء والأرض بنوعٍ مِن مظاهر المعجزة

تكرَّرَ الظَّرفُ (إذا) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ مع كونه مفهومًا مِن العطف، للدّلالة على استقلال كلٍّ واحدة مِن الجملتين بنوعٍ مِن القدرة الإلهيّة، فانشقاق السّماء العُلويَّة نوعٌ، وتسوية الأجسام السُّفليَّة نوعٌ آخر. وهي ذاتها نُكتةُ تكرير (إذا) في سورة التَّكوير، وفي الانفطار[3]، وبدأ بالعالم العلويِّ، لكونه أشرفَ، لأنَّه أعلى مكانةً ومكانًا"[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 21/ 336، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 31/ 256.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 422.
(3) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 164.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 21/ 336.

نُكتةُ تقديم ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾:

تقوية الشّرط والدّلالة على تحقّق وقوعه

تقدَّمَ المُسنَد إليه ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾ على المُسنَد الفِعليِّ ﴿مُدَّتۡ﴾ دون أن يقال: (وإذا مدّت الأرض)، لإفادة تقوّي الحكم والإنباء عن أنّ هذا الشّرط مُحقَّقُ الوقوع، وِفاق ما يقتضيه لفظ (إذا) في الشّرطية مِن قصد الجزم بحصول الشَّرط بخلاف (إنْ).

دلالةُ التّعبير بصيغة ﴿مُدَّتۡ﴾:

الزّيادةُ في الأرض بتمديدها أو بإمدادها

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾ بفِعل المَدِّ، الجائز في معناه وجهان:

الأوَّلُ: أنَّه مأخوذٌ مِن مَدَّ الشَّيء فامتَدَّ، وهو أن تُزالَ جِبالُها بالنَّسفِ، كما قال في آيات أخرى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥﴾ [طه: 105]، أي: يُسوّي ظَهرَها، وكما قال: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧﴾ [طه: 106 - 107] وعن ابن عباس: "مُدّت مدَّ الأديم الكاظميّ"؛ لأنّ الأديم إذا مُدّ زال كُلُّ انثناءٍ فيه واستوى.

الثّاني: أنَّه مأخوذٌ مِن مَدَّه بمعنى أمدَّه، أي يُزاد في سَعتها يوم القيامة لوقوف الخلائق عليها للحساب.

ولا تعارضَ بين الوجهين، فإنَّ الزّيادة في وجه الأرض يكون سواءً بتمديدها أو بإمدادها، لأنَّ خَلق الأوَّلين والآخرين لمّا كانوا واقفين يوم القيامة على ظَهرِها، فلا بدّ مِن الزّيادة في طولها وعرضها[1].

دلالةُ التّعبير بالفِعل ﴿مُدَّتۡ﴾ ماضيًا مبنيًّا للمفعول:

الاحتياطُ للمعنى والتّنبيهُ على تحقُّقِ الوقوع

عُبّر بالفعل الماضي ﴿مُدَّتۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾ لخروجه في باب الشّرط إلى الاستقبال، فضلًا عن دلالته

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 97.

على تحقُّقِ وقوعه، لأنّ أصل (إذا) القطعُ بوقوع الشَّرط. والقصدُ مِن مجيء الشَّرط ماضيًا - وإن كان معناه الاستقبال - هو إنزالُ غيرِ المُتيقَّن منزلةَ المُتيقَّن، وغيرِ الواقع منزلةَ الواقع.

الإيجازُ بطَيِّ ما هو معلوم

وبُني الفعل لما لم يُسمّ فاعله، ولم يُصرَّح بالفاعل، للإيجاز، لكونه معلومًا؛ فالمتصرّف في الكون مِن أرضٍ وسماءٍ وسائرِ الأجرام هو خالِقُها سبحانه، مع ما في هذا البناء من التّركيز على الفعل في حَدِّ ذاته، وهو ﴿مُدَّتْ﴾ دون التّعرّض للفاعل، ومعلومٌ إذا كان الكلام مُنصبًّا إلى غرضٍ مِن الأغراض جُعِلَ سياقُه له وتوجُّهُه إليه، كأنَّ ما سواه مرفوضٌ مُطَّرَحٌ[1].

نوع الواو في قوله: ﴿وَأَلْقَتْ﴾:

الأرضُ إذا مُدَّت رَمَـــت مـــا في جوفها

عُطف قَوْله تَعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ على ما قبله بحرف الواو الدّالَّة على الجمع والاقتران، فبَعدَ أن ذَكرَ النَّظمُ الكريمُ مَدَّ الأرض عَطَفَ عليه إلقاءَها ما في جوفها، ووجهُ ذلك أنَّها لَمّا مُدّت رَمَت بما في جوفها مِن الموتى والكنوز[2].

دلالةُ استعمال مُفردة الإلقاء:

إخـــراجُ الأرضِ أثقالَها مِن الموتى والكنوز

أوثرَ استعمال لفظ الإلقاء في قَوْله تَعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ بمعنى الرَّمي، والمعنى أنَّ الأرضَ ترمي بما في جوفها مِمّا دُفن فيها من المَوْتى والكُنوز، فهو كقوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ [الزلزلة: 2]، وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾ [الانفطار: 4]، وكقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦﴾ [المرسلات: 25 - 26][3].

بلاغة إسناد فعل الإلقاء للأرض:

تأثُّرُ الأرض لأمر الله التَّكوينيّ

خرّج بعض العلماء قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ على المجاز

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 254.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 97.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 726، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 97.

في لفظ ﴿وَأَلْقَتْ﴾، فقالوا إنّ إسناد الإلقاء إلى الأرض مِن الإسناد المجازي، لأنّ الإلقاء والإخراج للّه تعالى ولكنَّ الأرض وُصفت بذلك على التوسُّع فيكون مجازًا مرسلًا في التأثُّر لأمر اللّه التّكويني[1]. والعلاقة المسببيّة، أي: إنّ الإلقاء كان مسبّبا عن أمر اللّه لها بذلك.

وذَكَرَ بعضُهم أنَّ في استعمال فعلِ الإلقاءِ استعارةٌ مَكنيَّةٌ، فقد شُبِّهَت حالُ الأرض حينما يُلقي اللّه ما في باطنها بحال المرأة الحامل الَّتي تلقي ما في بطنها عند الشِّدَّة والهول. ثُمَّ حُذِفَ المُشَبَّه به واستعير لَفظُ الإلقاء[2].

سِرُّ استعمال الموصول ﴿مَا﴾:

عُبّر في قَوْله تَعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ دون غيرِه مِن الموصولات لدلالته على العُموم، فهو اسمٌ موصولٌ مُشتركٌ صالِحٌ لِكُلِّ الضَّمائر، ويَعُمُّ جميعَ الأشياءِ والمخلوقاتِ، العاقلِ منها وغيره، وإن كان في الأصل موضوعًا لغير العاقل إلّا أنَّه يُستعمل في العاقل أحيانًا.

لا تُبقي الأرضُ عند قيام السّاعة شيئًا إلا ألقَته

دلالةُ استعمال حرف الظَّرفيَّة (في):

استُعمِلَ في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ حرفُ الجَرِّ (في) الدّالُّ على الظَّرفيَّة المكانيَّة، وهي هنا ظَرفيَّةٌ حقيقيَّةٌ لاحتواء الأرض على الكُنوز والمَوْتى احتواءَ الظَّرفِ على المظروف، قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ [الزّلزلة: 2] وقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦﴾ [المرسلات: 25 - 26].

احتواءُ الأرضِ على الكُنوزِ والمَوْتى احتواءَ الظَّرفِ على المظروف

نُكتةُ عطفِ (تخلت) على ﴿وَأَلْقَتْ﴾:

عُطف قَوْله تَعالى: (تخلّت) على ما قبله بحرف الواو الدّالِّ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 219.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 424.

الجمع والاقتران، فالأرضُ إذا رمت ما في جوفها من الموتى والكنوز إلى ظاهرها، خَلَت عمّا فيها غايةَ الخُلوِّ حتّى لا يبقى فيها شيءٌ منه[1].

خُلوُّ الأرض غايةَ الخُلوِّ بَعدَ رَميِها ما في جوفها

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿وَتَخَلَّتْ﴾:

جاء الفعلُ في قَوْله تَعالى: ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ على صيغة التَّفعُّل، الدّالِّ على قوَّة الخُلوِّ عَن الشَّيءِ لِما في مادَّة التَّفَعُّل مِن الدَّلالة على تَكَلُّف الفِعل، أي: تكلَّفَت الأرض في الخُلوِّ أقصى جُهدِها حَتَّى لم يبقَ شيءٌ في باطنها. والمُرادُ مِن التَّكَلُّف هنا لازِمُه مَجازًا؛ لأنَّ التَّكَلُّف فِعلُ العقلاء، وهنا قصد به المُبالَغَةُ مَجازًا، فيكون في ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ اسْتعارَةٌ تَبَعيَّة[2].

قوَّةُ خُلوِّ الأرض عن مُحْتوياتِها

بلاغةُ التَّكرارِ اللَّفظيِّ في جُملة ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾

تَكرارُ جُملة ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ لِدَفعِ تَوَهُّم أنَّ إلقاء الأرض ما فيها وتَخَلّيها قد تمَّ بغير أمرِه ﷻ، فكُرِّرت لإثبات معنى أنَّها فعَلَتْ ذلك امتثالًا لأمر ربِّها وانقيادًا لِسُلطان خالِقِها، وكانت حقيقةً بذلك كما أنَّ كُلَّ مَربوب كذلك[3]. وتفاصيلُ الدِّلالات البلاغيَّة المتعلِّقة بهذه الآية مماثِلةٌ لما ذُكر في الآية السّابقة في شَأنِ السَّماء.

انـقـيـادُ الأرضِ لأمـر ربّـهـا مِـن سُـننه تعالى في الكون

براعةُ النِّداءِ في جملة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾:

استفتح قولُه تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ بأسلوب النّداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾، والغرضُ مِنه تنبيهُ السّامِع لإيقاظ ذِهنه واستحضار قَلبِه، فإنَّ الحَكيم إذا خاطب مَن يكون مَحَلَّ الغفلة أو مشغولَ البال يُقَدِّمُ على الكلام المقصودِ شيئًا ليلتفتَ المخاطَب بسببه إليه ويُقبِلَ بقلبه عليه بسبب ذلك المقَدَّم، كالنّداء وحروف الاستفتاح وغيرها، تنبيهًا له على أنَّ ما سيُلقى إليه أمرٌ مُهِمٌّ[4].

تنبيهُ مشغول الـبـال إلى ما سيُلقى إليه من الكلام

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 31/ 256.
(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 163.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 337.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 23.

دلالةُ النَّكِرَة المقصودة (أيّ):

الإنسانُ بعيدٌ عن الحساب غافلٌ عنه

تَضَمَّنَ قولُه تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ نداء ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ بحرف نداء البعيد (يا)، فجيء بـ(أيّ) توصّلًا لنداء ما فيه (أل)، وقد ذهب جمهور النُّحاة إلى أنَّ معنى المنادى المُعَرَّفِ بـ(أل) والنَّكرة المقصودة واحدٌ لأنّهما معرفة، فقولك (يا رجل) كقولك (يا أيّها الرّجل)[1]. وأبدى بعضُ العلماء فرْقًا بينهما، فإنَّ المنادى في قولك (يا رجل) نكرةٌ في الأصل فقُصِدَ بالنّداء، وأمّا المعرّف بـ(أل) فهو معرفةٌ قبل قصده بالنّداء[2]. وكذلك فإنّ قولك (يا رجل) يدُلُّ على مجرَّد النِّداء، أمّا قولك (يا أيّها الرَّجل) يدلّ على ذلك أيضًا، ويُنبئُ عن خَطَرِ المنادى له، أو غفلة المنادى[3]. فاستعمل (أيّ) في هذه الآية للدّلالة على غفلة الإنسان عن الحساب.

نُكتةُ اختيار لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾

فرادةُ الإنسان خَلقًا في هذا الكون مدعاةٌ لِدِقَّتِه في معرفة خالقه

عُبِّر بلفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، والمقصود به ابن آدم، لما يدلّ عليه اشتقاقه من معنى الظُّهور بخِلاف الجِنِّ؛ أو لأنَّهُ خُلِقَ خِلقَةً لا قَوامَ لَهُ إلّا بأُنْسِ بعضِهِمْ ببَعْضٍ، أو لأنَّهُ يأنَسُ بكُلِّ ما يَأْلَفُهُ، أو لأنَّهُ عَهِدَ اللّه إلَيْهِ فنَسِيَ[4]. وهذا الأخير لم يرضه ابن القيّم، وذهب الى أنّ لَفْظَ (إنسانٍ) هوَ فعْلان مِنْ (أ ن س)، والألِفُ والنّونُ في آخرِهِ زائدتان، وقال لا يجوزُ فيه غيرُ هذا ألبَتَّةَ، ولَوْ كانَ مُشْتَقّا من نَسِيَ لكانَ نِسْيانًا لا إنْسانًا[5]. وأيًّا كان الأصلُ فإنَّ اصطفاءَه ههنا فيه تذكيرٌ لهذا المخلوقِ الظّاهرِ على غيره بما فضَّل اللّه عليه، الآنسِ بنفسه، وبِبَني جِنسه وذلك أدعى لأنْ يكون عارفًا برَبِّه، طائعًا لأمره أكثرَ مِن الأرض والسَّماء.

(1) سيبويه، الكتاب: 1/ 310.
(2) فاضل السّامرائيّ، معاني النَّحو: 4/ 330.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 189.
(4) الرّاغب، المفردات: (أنس).
(5) ابن القيّم، التَّفسير القيّم، ص: 681.

دلالةُ تعريف لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

عمومُ الخطاب، مـــع إرادة تخصيص كُـلِّ فردٍ منه

وَرَدَ لَفْظُ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ مُعَرَّفًا بأداةِ التَّعريفِ (أل)، ويجوز أن يكون تعريفُها تعريفَ الجِنْسِ المقتَضي للعُموم، فيكون المرادُ جنسَ النّاس وكأنَّه خطابٌ خُصَّ به كُلُّ واحد مِن النّاس، وهو أبلغُ مِن العموم لأنَّه قائمٌ مَقامَ التَّخصيص على مخاطبة كُلِّ واحدٍ مِنهم على التَّعيين بخلاف اللَّفظ العامِّ فإنّه لا يكون كذلك. ويجوز أن تكون (أل) للعهد، فيكون المُرادُ مِن اللّفظ رجلٌ بعَينه. والأقربُ أن يُحمل التَّعريفُ على الجنس، لأنَّه أكثرُ فائدة، ولأنَّ قوله: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ كالنّوعين له، وذلك لا يتمُّ إلّا إذا كان جنسًا[1].

دلالةُ التَّوكيدِ بـ (إنَّ):

تـأكـيـدُ الأمـور الغيبيَّة زيادة في الإيمان بها

أوثر في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ استعمال (إنَّ) والجملة الاسمية وهما مِن مؤكّدات مضمون جملة الإسناد اهتمامًا بتوكيد الحساب على الأعمال، ولِكون الكلام جاريًا على خلاف مقتضى الظّاهر بتنزيل خالي الذِّهن منزلةَ السّائِل المُتَردِّد فيُؤكِّد له الخبر لإزالة ما قد يَعلَقُ بنفسه مِن شَكٍّ.[2] وكذلك لزيادة الإيمان بالأمور الغيبيّة القائمة على النَّقلِ الصّادق والخارجةِ عن حدود الحواسّ، ولاسيّما البعث الَّذي يُنكِره أكثرُ النّاس[3].

دلالةُ استعمال لفظ ﴿كَادِحٌ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الإنسانُ مُجِدٌّ في عَمَلِه مِن خيرٍ أو شَرٍّ، باذِلٌ جُهدَه فـيـه، مُـجـهـدٌ نَفسَه

عُبّر في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ باسم الفاعل ﴿كَادِحٌ﴾، بمعنى إتعاب النّفس في العمل والكَدّ، حتّى يؤثِّر فيها، والمعنى أنَّ الإنسان جاهدٌ ومجدٌّ جدًّا في عمله مِن خير وشرّ[4]. ويجوز أن يضمّن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 97.
(2) عبد المتعال الصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 1/ 47.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 338.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 221، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 288.

﴿كَادِحٌ﴾ معنى (ساعٍ)؛ لتعديته بـ(إلى)، وذلك أنّ النّاس بكدحهم في الحياة يتطلّبون بعمل اليوم عملًا لغد، وذلك يتقضي بهم زَمنَ العمر الَّذي هو أَجَلُ حياةِ كُلِّ إنسانٍ ويَعقُبُه الموتُ الَّذي هو رجوعُ نفس الإنسان إلى محض تَصَرُّفِ اللّه، فلمّا آلَ سعيُه وكدحُه إلى الموت جُعِل كَدحُه إلى رَبِّه الَّذي إليه المُنتهى بعد الموت. فكأنَّه قيل: (إنّك كادحٌ تسعى إلى الموت وهو لقاء ربِّك)[1].

تـأكيـدُ البعث والـجـزاء على الأعمال

وعُبّر بالمصدر ﴿كَدْحًا﴾ منصوبًا على المفعوليَّة المطلقة لتأكيد عامله وهو اسم الفاعل ﴿كَادِحٌ﴾ المضمَّن معنى (ساعٍ إلى ربِّك)، أي ساعٍ إليه لا محالةَ ولا مفرَّ، فنكتةُ هذا التَّأكيد إثباتُ البعثِ والجزاءِ على الأعمال خيرِها وشَرِّها[2]. وأنَّ الإنسانَ مُجتهدٌ في عَملِه وِفاق هذين المَسارَين[3]، دائبٌ على ذلك مُبالغٌ فيه بدلالة صيغَتَي اسم الفاعل، والمفعول المطلق المؤكِّدِ لنوعه.

دلالةُ استعمال ﴿إِلَىٰ﴾:

الكدحُ والمشقّةُ لا ينتهيان إلا بانتهاء الحياة

يدُلُّ حرفُ الجَرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على انتهاء الغاية الزَّمانيّة، أي إنَّ كدح الإنسان يستمرّ ويبقى إلى زمن موته، فالإنسان لا ينفكّ في هذه الحياة الدّنيوية مِن أوَّلها إلى آخرها عن الكدح والمشقّة والتّعب. فدلالة انتهاء الغاية في ﴿إِلَىٰ﴾ توجِبُ انتهاءَ الكدح والمشقّة بانتهاء هذه الحياة، وأن يكون الحاصلُ بعد هذه الدّنيا محضَ السَّعادة والرَّحمة أو الشَّقاوة والعذاب[4].

بلاغةُ التَّعبير بعُنوان الرُّبوبيَّة:

في تَقَرُّب العبد إلى رَبِّه وفاءٌ لإحسانه إليه بإغداق النِّعم الدُّنيويّة والدّينيّة

عبّر بوصف الرّبوبية دون سواه من أسماء اللّه وصفاته في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ لما في هذا الوصف مِن دلالةٍ على الشَّفَقة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 220/ 221.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 221.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 221، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 288.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 98.

بالمربوب، ومَحَبَّة الخير له، وللتَّنبيهِ على أنَّ واجبَ الإنسان التقرُّبُ إلى مُرَبّيه المُحسنِ إليه بكُلِّ نِعمةٍ دُنيَويَّةٍ ودينيَّة[1]، ففيه تذكيرٌ للعبد بنعمةِ الإيجادِ والإمدادِ، وهو معنى الرّبوبيّة، ولتتأتّى الإضافةُ المفيدةُ للتّشريف والقُرب، فهو ربُّ الإنسان وخالِقُه[2].

غرضُ تقديم القيد ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على المفعول:

الله سبحانه هو المختصُّ بحساب الإنسان على سَعيِه

تقدَّمَ الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على المصدر ﴿كَدْحًا﴾ لِنُكتةٍ بلاغيَّةٍ وهي الاختصاص، بمعنى اختصاص الله بالرُّجوع إليه وبالحساب، ونظيره مَثَلًا قولُه تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: 25 - 26][3]. ويرى بعضُ العلماء أنّ مَحْمل هذا التّقديم بالنّسبة إلى المسلمين الاهتمامُ، ومحملَه بالنّسبة إلى المشركين القصرُ، أي: لا يصيرون إلى غيرنا، مع الرّعاية على الفاصلة[4].

نوعُ الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾:

تَرَتُّبُ الجزاء على العمل

عُطف قوله تعالى: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ على ما قبله بحرف الفاء، وتحتمل أن تكون للتّعقيب، أي: (فملاقٍ له عقيب ذلك لا محالة، مِن غير صارفٍ يَلويك عنه)، كما تحتمل أن تكون جزائيَّة؛ لأنَّ الجَزاء لا بدّ وأن يكون جملةً ويُقدَّر المُضاف أي (فأنت مُلاقٍ جزاءه)، فالفاء حينَئِذٍ جزائيَّة.

وقد تكون هذه الفاءُ عاطفةً للتَّرتيب والتَّعقيب والسَّبَبيَّة، عطَفَت جُملةَ الكلام على الَّتي قَبلَها، والتَّقدير: (فأنتَ ملاقيه)، ويصحُّ أن يكون الكلامُ معطوفًا على ﴿كَادِحٌ﴾ عَطْفَ المفردات[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 100.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 202.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 745.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 110.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 288، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 437.

سِرُّ صوغ ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ اسم فاعل:

الإعـــدادُ للّقاء الكريم نجاةٌ مِن العذاب الأليم

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ بمعنى: (يعقُب كَدَحَك لقاؤُك لربِّك، وأنّه ينكشف لك أنَّك كنتَ في سيرك إليه كالمجتهد في لقائه اجتهادَ من يسابق في ذلك آخَرَ)، وفي ذلك تمثيلٌ لنفوذ إرادته ومُضيِّ أقضيته بسبب الانتهاء إليه، وحثٌّ على الاجتهاد في الإحسان في العمل؛ لأنَّ مَن أيقن بأنَّه لا بُدَّ له مِن العرض على الملك أفرغ جُهدَه في العمل بما يَحمَدُه عليه عند لقائه[1].

وفي التَّعبير باسم الفاعل (ملاقي) دلالةٌ على الاستقبال والثُّبوت والتَّلبُّس بالفعل في المستقبل القريب، ممّا يُؤَكِّد حتميَّة وقوع هذا اللِّقاء.

بلاغةُ المجاز في لفظ ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾:

مـلاقـاةُ الـرَّبّ سبحانه ملاقاةٌ لجزائه ثوابًا أو عقابًا

يحتمل قولُه تعالى: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ أن يكون مِن مجاز الحذف، والتّقدير: (فَمُلاقٍ جزاء ربّك) أو (فملاقٍ جزاء الكدح)، وفيه مُبالَغَة؛ إذ الكدح والسّعي إلَى العمل في الدُّنيا لا إلى لقاء جزائه في العُقبى، لكن لمّا كان السّعيُ إلَى العمل للجزاء كان السّعي في الحَقيقَة إلَى الجَزاء؛ هذا لأهل الإيمان والطاعات؛ وأمّا الكَفَرةُ فإنَّ سعيَهم إلى الشّرور والمعاصي وعبادَةِ غيره تَعالى بأنواع التَّعب والنَّصب، وإن لم يكن للجزاء بالعقاب، لكن لمّا ترتّب عليه فكأنَّ سعيَهم سَعيٌ إلى ذلك الجَزاء السّوء في الحَقيقة، ففيه ترغيبٌ وتشويقٌ إلى ما يُنجي، وتثبيطٌ عَمّا يُردي[2].

مرجع الضمير في قوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾:

أثـــر مـرجـع الـضّـمـير في اختلاف التّفسير

الضّمير في لفظ ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 339.
(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 165.

كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾، عائدٌ على لفظ (الرَّبّ)، والمعنى: (فملاقٍ رَبَّك)، أي: (ملاقٍ حُكمه لا مفرّ لك منه)، أو هو عائدٌ على الكدح، إلّا أنّ الكدح عملٌ وهو عَرَضٌ لا يبقى فملاقاتُه مُمْتَنِعةٌ، فوجب أن يكون المُرادُ ملاقاةَ الكتاب الّذي فيه بيانُ تلك الأعمال، ويتأكّد هذا التّأويلُ بقوله بعد هذه الآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(أذِن) و(سمع):

السّماءُ شديدةُ الانقيادِ والطّواعية، كمَن له أُذُنٌ واعية

يتجلّى الفرق بين لفْظَيْ (أذِنَ) و(سَمِع) في مَلمَح اشتقاقِ كلٍّ لفظٍ منهما، فلفظ (سَمع) عامٌّ في الحاسّة الّتي يتمُّ من خلالها إدراكُ الأصوات سواء كان ذلك بالعضو المخصوص وهي الأذن أم غيرها، وأمّا لفظ (أذِنَ) فمُشْتَقّ من الأذْن بمعنى توجيه الأذُن السّامعة أو من الأُذُن بمعنى العضو المَخْصوص؛ لأنّه يجوز الاشْتِقاقُ من الجوامد[2]. وقد أوثرَ في الآية لفظُ (أذِن) لقصد المبالغة في إظهار الانقياد والامتثال لأوامر الخالق سبحانه، أي إنَّ السَّماء شديدةُ الاستماع والطَّواعية والانقياد على أتمِّ وجهٍ كَمَن له أذنٌ واعيةٌ، ونفْسٌ مطمئنَّةٌ راضيةٌ[3].

المدّ والبسط:

اختصاصُ المدّ بالاستطالة الأُفُقيَّة

يتجلّى الفرق بين لفْظَي (المدّ)، و(البَسط) في المعنى الدّلاليِّ لِكُلٍّ منهما، فيختصّ المدّ بكونه جَرَّ شيءٍ في طول، واتّصالَ شيءٍ بشيءٍ في استطالة[4]، ويُلمح فيه معنى الاستطالة الأفقيّة من غير

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 98.
(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي:: 20/ 161.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 96.
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (مدد).

اتّساع أو انتشار، أمّا البسط فهو: الاتّساع في الشّيء، وأصله: النّشر والتّوسيع، ومنه بَسْطُ الرّزق، والبِساطُ المُفْتَرَشُ من ذلك لاتّساعه[1]، وقد أوثر في الآية لفظ ﴿مُدَّتْ﴾ للدّلالة على الزّيادة في وجه الأرض سواء بتمديدها أو بإمدادها[2].

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (بسط).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 97.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والستون،
سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والستون، سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 66 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-45-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 66 : المجلد السادس والستون، سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-45-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6448894 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"